صون الرباط الزوجيّ:
لماذا يجب ألّا تُحلَّ الأزمات العائليّة إلّا ضمن العائلة؟

الأب ليونيد بارتكوف

إخوتي وأخواتي الأعزّاء في المسيح. لستُ أكتب هذه السطور بقلمي، بل بقلبٍ جرّحتهُ حالات طلاق أناس، وعزّاه تصالح غيرهم. أعلم أنّ كثيرين منكم ممّن يقرؤون هذه الكلمات مُتعَبون. أنهكهُم سوء الفهم، والبرودة على مائدة العشاء، والصمت الثقيل؛ أو على عكس ذلك، أتعبهُم ضجيج المشاجرات. ويهمس لكم عدوُّ الجنس البشريِّ بحلٍّ بسيطٍ كما يبدو له: "اذهبوا واروا قصَّتكم لأحدٍ ما، وتذمَّروا، وسيفهمكم ويعرف ما الذي يجب فعله". أتوسَّل إليكم: توقّفوا. أعيروني انتباهكم في هذا النصّ لبرهة، فلربَّما يعطيكم الله منظورًا مختلفًا.

الكنيسة الصغيرة وعهد السماء

اعتدنا أن نسمّي العائلة "كنيسة صغيرة"، لكنّنا غالبًا ما نردّد هذه الكلمات على نحوٍ شكليّ، غير آخذين بعين الاعتبار معناها العميق والخلاصيّ. ليست الكنيسة جدرانَ معبد، بل هي التئام المؤمنين المخلِصين، متَّحدين بوساطة كأس المسيح. وبصورةٍ مشابهة، ليست العائلة ختمًا على جواز سفر، ولا ميزانيّةً مشتركة، ولا مجموعةً من أدوات المطبخ؛ إنَّها سرٌّ مقدَّس (Sacrament). إنّها عهدٌ نقطعه، لا أمام سيّدةٍ متوسّطة العمر في مكتب تسجيل الزواج، بل أمام الله نفسه.

حين يقف شخصان تحت إكليلَي الزواج، يُعطَيان نعمةً لا للتمتُّع بالأحلام الورديّة إلى الأبد، بل لسلوك الطريق من الـ "أنا" إلى الـ "نحن". إنَّها رحلةٌ مخيفةٌ يصلبان فيها أنانيَّتهما. ليست الأزمة العائليّة آلةً مُعطَّلةً تحتاج إلى أن يُصلحها جارنا، بل هي عمليَّةٌ جراحيَّةٌ يُجريها الله على نفوسنا. وتمامًا كما الحال خلال إجراء عمليّةٍ جراحيّة، لا حاجة إلى وجود متفرّجين. ثمّة حاجةٌ إلى الصمت والصلاة والثقة بالـ "طبيب". "ما جمعَهُ الله لا يفرّقه إنسان" (متّى 19: 6).

تأمّلوا في التالي: لا ينبغي لأيّ شيءٍ أن يخترق هذا الباب المغلق - لا الناس، ولا الظروف، ولا نصائح آخرين، بل ولا حتّى نوايا الأقرباء التي تبدو صالحة.

الخطأ الأساسيّ: السرّ المقدّس أمام الملأ

تكمن المشكلة الكبرى في العائلات المعاصرة في "إخراج القمامة من المنزل". قديمًا، كان يُعمَلُ بهذا المثل بشكلٍ حرفيّ، فكانت تُكنَس القمامة حتّى عتبة الباب، وكان من غير المسموح أن تتجاوزه. أمّا اليوم، فنحن نحمل هذه القمامة ونلفُّ بها العالم: نذهب إلى والدتنا، وصديقنا، وأخينا، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، وعابري السبيل.

لماذا نفعل هذا؟ في الغالب بداعي التواضع الزائف الذي تفوح منه رائحة الكبرياء. نبحث عن تأكيدٍ لصحّة موقفنا الشخصيّ، لا عن نصيحة. نرسم صورةً قاتمة الألوان لشريك حياتنا، بينما نبقى صامتين بخصوص خطايانا نحن. نعقد "مجمع أبرارٍ" ضدّ "طرفٍ مذنبٍ" واحد.

تذكّروا كيف أنَّه في أغلب الأحيان، بعد التصالح في اليوم التالي، تكونون قد نسيتُم بالفعل سبب المشاجرة، بينما لم تنسَ والدتكم أو صديقكم المقرَّب. يبقى شريك حياتكم إلى الأبد في نظرهم ذاك "الوحش" الذي وصفتُموه ببكاءٍ وغضبٍ يوم الثلاثاء. أنتم سامحتُم، وأمّا هم فلا. وهذا السمُّ سيتسرَّب إلى علاقتكم لسنواتٍ قادمة.

إنّ الأب المعرّف يرى النفس ويتكلّم انطلاقًا من الكتاب المقدّس. أمّا الجارة فلا ترى سوى واجهة غضبكم وتحكم عليه بناءً على خيباتها الشخصيّة. لذا فإنّ ائتمان الآخرين على هذا الظاهر هو كرَمي القدسات إلى الكلاب.

سرُّ الصمت في الحياة الزوجيّة

يوجد مبدأٌ هو مبدأ "الصمت في الحياة الزوجيّة". وهو لا يعني أن يصمت الزوجان ولا يُكلِّما بعضهما، بل يعني الحفاظ باحترامٍ على حرمة العالم الداخليّ من التدخُّل الخارجيّ. كلُّ ما يحصل بين الزوج والزوجة، من لحظات ضعف، وبكاء، وحميميّة، وسوء تقديرٍ للشؤون المنزليّة، وسقطاتٍ روحيّة، تستره المحبّة.

فلنتذكّر أبناء نوح. رأى حام عُري أبيه وذهب وأخبر إخوته بالأمر. أخذ سام ويافث الرداء وسارا نحو الخلف، وسترا أباهما من دون رؤية عورته. هذا مثالٌ على التصرُّف الصحيح. في كلّ عائلة، توجد لحظاتٌ يبدو فيها الزوج في حالةٍ غير مستحبّة، كأن يكون ثملًا أو ضعيفًا أو غبيًّا أو غاضبًا. ليست غاية شريك حياته التقاط صورٍ لهذه الحالة المُهينة وعرضها على محكمة العائلة، بل أن يسترها بالمحبّة من دون أن يدينها.

حين تشكون شريكَ حياتكم للآخرين، فإنّكم تُلحِقون ضررًا دائمًا بالاحترام الذي تكنُّونه له. ليست الكلمات عصافير [تطير وينتهي الأمر]، فقولكم في لحظة غضبٍ "إنّه فاشل" أو "إنّها امرأة هستيريّة" سيظلُّ محفورًا في أذهان الوالدين. لماذا تُفاجئين إذًا حين تنظر والدتك إلى صهرها بازدراء؟ أنتِ مَن جعلها ترى زوجكِ من هذا المنظور السيّئ.

الاعتراف لدى أبٍ مُعرّفٍ هو شفاءٌ وخجلٌ يقود إلى التنقية. أمّا الاعتراف أمام حشدٍ من الناس هو تعريةٌ للنفس تقود إلى الهلاك.

إنَّ القديس يوحنّا الذهبيّ الفم، معلّم التقوى العظيم، تحدّثَ عن عالم العائلة بأنّه آنيةٌ ثمينةٌ يجب حفظها من أدنى نفحة هواء. فلا تُحوِّلوا بيوتكم إلى "طريقٍ عامّ"!

وهْمُ "الاستقلال الفرديّ": الهجران بوصفه خيانةً للعهد

إنّ السيناريو الأكثر خبثًا وحداثةً هو الهروب. تُقال عباراتٌ مثل: "لقد تعبت"، "أحتاج إلى مساحتي الخاصّة"، "فلنعِشْ مُنفصلَين ونختبرْ مشاعرنا". ويبدو ذلك أمرًا نبيلًا للغاية، وذا طابعٍ أوروبيّ، لكن تكمن خلفه خطيئةٌ قديمةٌ قِدم الدهر: الجُبن.

ليس الزواج عقد إيجارٍ مريحًا حيث يمكنكم الرحيل بعد إعطاء إيعازٍ قبل شهرٍ من ذلك. الزواج صليب – هو الصليب عينه الذي يُصلَب عليه الإنسان العتيق. وحين ينزل أحد الزوجين عن الصليب، فإنَّه يترك الآخر يموت هناك وحيدًا.

أتذكّر حالةً تعاملتُ معها خلال خدمتي الرعائيّة. سئم أحد الأزواج من المشاجرات اليوميّة، فذهب إلى والدته "لتسوية الأمور"، وبقيت زوجته وحدها مع طفلين. مضى شهرٌ ثمّ آخر وآخر. وكان الوضع ملائمًا له: كانت والدته تُطعمه وتعتني بنظافته، وتخلَّصَ من صراخ أولاده وتقريعات زوجته. ولكنْ عندما قرّر العودة، وجد أنّ زوجته كانت قد بكَت إلى أن تلاشى كلُّ حبّها له خلال تلك الشهور. كانت قد تعلّمت أن تعيش من دونه.

وبسبب تذوّقها ألم الخيانة، أُغلقَ قلبها وكستهُ طبقةٌ جليديّة. كان التخلّي عن السرير المشترك الخطوة الأولى لتباعُد الروحَين إلى الأبد.

إنّ الأقارب الذين يؤيّدون فكرة "إجازةٍ عائليّة" كهذه يتحمّلون مسؤوليّة هائلة. فهُم بذلك لا يقدّمون المساعدة، بل ينقبون كاللصوص في جدران منزلكم، ظانّين أنّهم يفسحون مجالًا للأزواج للتنفُّس. أمّا البديل عن الانعزال فهو رحلة حجٍّ مشتركة، وصلاةٌ مشتركةٌ غايتها تحقيق الاتّفاق، وليس أن يهرب أحد الزوجين من الآخر. ما لم يوجد وضعٌ يُشكّل تهديدًا للحياة، احتمِلوا. احتمِلوا معًا. حتّى بالصمت، حتى بغصب أنفسكم، ولكن قوموا بذلك معًا.

الشكاوى اليوميّة ولعنة "التخاطُر"

والآن فلنتحدّث عمّا يدمّر العائلات من الداخل وبصمتٍ ومن دون أيّة فضائح: إنَّها الكبرياء الصامتة. إنَّه مشهدٌ كلاسيكيٌّ مألوفٌ لدى كلّ كاهن. تجلس أمامه الزوجة بوجهٍ خالٍ من التعابير، بينما لا يفهم الزوج حقًّا ما الذي حدث. وتكون المشكلة أنَّه لم يدرك أنَّ عليه إخراج القمامة مع أنَّها "لمَّحت إلى ذلك ثلاث مرّاتٍ بتنهيدة". أو تكون المشكلة أنَّها لم تُقدِّر صبره البطوليّ حين كان يعاني من الصُّداع بصمتٍ منتظرًا تعاطفها معه.

يا أعزّائي! وهبنا الله لسانًا لا لنأكل فقط، بل لنُفصِحَ به أيضًا عمّا نريد. أن تتوقّعوا من شريك حياتكم قراءة أفكاركم ليس دليل رباطٍ روحيٍّ عميق، بل هو علامة كبرياءٍ وتلاعب. إنَّه "تخاطرٌ ذهنيّ" في خدمة الشيطان.

في هذا السياق، كثيرًا ما أتذكّر قصّة أنطون بافلوفيتش تشيخوف القصيرة الرائعة "Pecheneg". أتذكُرون ضابط القزاق المتقاعد "Zhmukhin"؟ هذا ظلّ يعذّب زوجته طيلة حياته بتنظيراته السخيفة وانعدام محبّته التامّ، وعندما توفّيت، لم يفهم مُطلقًا لمَ كانت بائسة. عاش معها في سهلٍ ناءٍ، لكنّهما كانا بعيدَين كلّ البُعد بعضهما عن بعض، لأنَّهما لم يتبادلا ولا حتّى كلمةً قلبيّةً واحدة. كانت "فلسفته" قد حلَّت محلَّ حياته.

وكم من العائلات يعيش فيها الأزواج في عالم نظريّاتهم الخاصّة مثل "Zhmukhin"، بينما تختنق الزوجات بصمتٍ لافتقادهنَّ كلمةً بسيطةً دافئة؟ وتموت أرواحهنّ، لا من الصراخ، بل من هذا الصمت الجليديّ اللامتناهي الأشبه بالسهل المنبسط.

إنَّ الطلب المُعبَّر عنه بصراحةٍ ولطفٍ يعكس تواضعًا. أمّا النقمة التي يتمّ تجرُّعُها بصمتٍ هي قنبلةٌ موقوتة. لا تدعوا أحبّاءكم رهنَ التكهُّنات. لا تُعاقبوهم بالصمت. قولوا: "أنا متألّم"، "أنا مُتعب"، "ساعدني"، "أرجوك ساندني". أبعدوا خطيئة الجهل عن أحبّائكم.

أبجديّة الحوار العائليّ: خطوات عمليّة

لا يسعُني أن أترك لكم المواعظ فقط. بل عليَّ، بوصفي راعيًا، أن أزوّدكم بأمورٍ توجيهيّة. إليكم بعد القواعد البسيطة، ولكن الإسعافيّة، لمن اختاروا العيش وفقًا لمشيئة الله بدلًا من نزوات هذا العالم.

1. **قاعدة الباب الموصَد.** كلّ ما يتعلّق بخلافاتكما وشؤونكما المادّيّة وحياتكما الحميمة وخططكما المستقبليّة يجب أن يبقى بينكما. إذا ما احتجتما إلى نصيحة، فاقصِدا الكاهن معًا. لا يحقّ لأحدٍ أن يتدخّل في شؤونكما الخاصّة، لا والدتكما ولا صديقكما ولا حتّى عرابكما.
2. **استخدام لغة غير سامّة.** توقّفا تمامًا عن استخدام عباراتٍ مثل "أنتَ لا تفعل كذا مُطلقًا"، "أنتَ دائمًا.."، "أمّك". تحدّثا عن نفسيكُما هكذا: "أنا قلِق"، "أحتاج إلى انتباهك". هذه هي لغة النفس الناضجة.
3. **صَدُّ الأشخاص الحَسَني النيّة.** حين يحاول أحدهم للمرّة المئة إسداء نصيحة لكما من دون طلبٍ منكما، قولا بلُطفٍ ولكنْ بحزمٍ "نشكر اهتمامك، لكنَّنا سنتولّى الأمر بنفسنا، وإذا ما عجزنا عن ذلك يمكننا استشارة كاهن". تضعُ هذه العبارة حدًّا لأيّ متطفّلٍ يؤدّي دور الوسيط.
4. **ربع ساعة مقدّسة.** أطفئا التلفاز وضَعا الهواتف جانبًا. اجلسا بجوار بعضكما وليس مقابل بعضكما كالأعداء، ولكن أمام أيقونة. أشعلا شمعةً أو قنديلًا. فليقل كُلٌّ منكما ما هو ممتنٌّ من أجله اليوم وما هو آسفٌ عليه. لا تُقاطعا بعضكما. استمعا وكأنّكما في جلسة اعتراف.
5. **الكأس المشتركة.** إنّ أقوى علاجٍ للطلاق هو اعترافٌ مشتركٌ لدى الكاهن نفسه ومناولةٌ مشتركة. حين يتناول الشخصان بالملعقة عينها، تذوب شكاياتهما كالشمع. كيف يمكن لأحدٍ أن يغرق في الحياة اليوميّة حين يتدفّق دمُ المسيح في شرايينه؟

العودة إلى عهد الحبّ

أيّها العزيزان، انظُرا حولكما. العالم في الخارج ليس رحيمًا، إنَّه قاسٍ وغير مبالٍ. سيدوس بكلِّ سرورٍ على وحدتكما ويمزّقها إربًا بالثرثرة والإشاعات. لا تمنحاه هذه الفرصة.

تذكَّرا قصّة غوغول: "مُلّاكُ العالم القديم"، وبطلَيها أفاناسي إيفانوفيتش وبولخيريا إيفانوفنا. قال الناس إنَّهما مملّان ولم يكونا يفعلان شيئًا سوى تناول الطعام. ولكن اقرآ كيف بكى ذلك الرجل العجوز حين توفّيت زوجته. جمعهما تفاهمٌ عميقٌ وحبٌّ حميمٌ هادئ، حتى إنَّ قصص حبّ شيكسبير بدت كلّها باهتةً مقارنةً بقصّتهما. لم يحتملا الثرثرة، بل عاشا في صمتهما الخاصّ، وكان صمتهما ممتلئًا من الله.

ليس الحبّ مجرّد فراشاتٍ في المعدة، بل هو إنجازٌ روحيٌّ عظيم، هو عملٌ طوعيّ. حين سأل المسيح بطرس: "أتحبُّني؟"، استخدم الفعل "agapao" الذي يعني محبّةً طوعيّةً مُضحّية، بدلًا من "philo" الذي يعني المودّة. واستجاب بطرس بهذا النوع من المحبّة. هذه هي المحبّة التي أوصانا الله بها. "الْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ. الْمَحَبَّةُ لَا تَحْسِدُ. الْمَحَبَّةُ لَا تَتَفَاخَرُ، وَلَا تَنْتَفِخُ" (1 كو 13: 4-5).

اعتنيا برباطكما الزوجيّ، ولا تدعا العالم يحكم عليه. عيشا في صمت الحبّ، واحملا أثقال بعضكما، وتحدَّثا إلى أن يُبحَّ حلقاكما. صلّيا بحرارةٍ إلى أن تذرفا الدموع، ولكن لا تفتحا أبواب فُلكِكُما لمن في الخارج. هناك طوفانٌ في الخارج. ومنزلكما هو الجزيرة الأخيرة من الفردوس على الأرض. فليُثبِّت الله بيتكما.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Priest Leonid Bartkov (n.d.). “Cherishing the Bond: Why Are Family Crises Only Resolved Within the Family?”. Retrieved online from *OrthoChristian*.